قراءة في منجز مرجعي

صبري جريس، **تاريخ الصهيونية ـ الجزء الثاني: «الوطن القومي اليهودي» في فلسطين** (١٩١٨ ـ ١٩٣٩)، نيقوسيا: مركز الابحاث ـ م.ت.ف. ١٩٨٦، ٥٨٧ صفحة.

في غمرة الصراع بين فريقين، تبقى كتابة التاريخ، وبخاصة عن العدو، من بين المؤشرات التي تدل على مدى التطور الحضاري الذي بلغه كل فريق. ذلك ان فهم كل منهما للآخر، مؤشر على درجة التطور هذه. ولعل نظرة الى الفهم العربي لمرحلة الحروب الصليبية، من خلال المؤرخين العرب الذين عايشوها، مقارنة مع الفهم الاوروبي، من خلال المؤرخين الاوروبيين الذين عايشوا تلك المرحلة، فيه ما يشير الى مدى تقصير الفريق الاوروبي في فهم الجانب الآخر، والى الدرجة المتقدمة التي حققها خصومهم في فهم الطرف الاوروبي. فالمؤرخون العرب، في ذلك، الحين، كانوا يعكسون الدرجة التي ارتقت اليها حضارة المنطقة، هذه الدرجة التي تهشمت عليها، في نهاية الامر، فروسية المقاتلين الصليبيين، التي لم تفدهم كثيراً ازاء التقصير في فهم عدوهم.

لذا، فان البحث التاريخي الجاد وما يتضمنه من استخلاصات، بغض النظر عن صدوره، من هذا الجانب او ذاك، هو بمثابة سلاح فعّال. ومن هنا تأتي الاهمية بالنسبة الى الدراسات الجادة الرصينة، ومن بينها كتاب «تاريخ الصهيونية».

ان الكتاب الذي بين ايدينا، هو حلقة وسيطة في مشروع يعمل المؤلف جاهداً على انجازه منذ فترة طويلة، للاحاطة بـ «تاريخ الصهيونية»، وتم حتى الآن انجاز الجزء الاول في العام ١٩٧٧، الذي أصدره مركز الابحاث في م.ت.ف. في بيروت، وهو يغطي مرحلة ظهور الحركة الصهيونية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر وحتى صدور وعد بلفور العام ١٩١٧؛ والجزء الثاني، وصدر عن المركز ذاته العام ١٩٨٦، ولكن من نيقوسيا هذه المرة، ويغطي الحقبة الواقعة بين الحربين العالميتين. واستكمالاً لهذا المشروع الكبير سيصدر، في وقت لاحق، الجزء الثالث، ويحمل اسم «الدولة القادمة» وسيغطي الفترة الواقعة ما بين ١٩٣٩ ـ ١٩٤٨. وبذلك يكون المؤلف رائداً في مجال دراسة تاريخ الصهيونية، فضلاً عن كون المنجز مرجعاً في هذا المجال.

وقبل الوقوف عند الحلقة الوسيطة في المشروع (الجزء الثاني) يجدر طرح الملاحظات التالية:

١ ـ عالج الكاتب هذه الحقبة، بتقسيمها الى فترات زمنية، وفق منهج اختطه لنفسه، حرص فيه على رسم صورة وافية في كل فترة لمواقف الاطراف الثلاثة، العربي والبريطاني والصهيوني، مع ايلاء الموضوع الصهيوني اهتماماً خاصاً، لجهة متابعة مختلف الجوانب الصهيونية وتغطيتها، تمشياً مع عنوان كتابه.

٢ ـ بسبب التقسيم الزمني، وتعارضه، في بعض الاحيان، مع التقسيم حسب الموضوعات، يلاحظ لجوء الكاتب، وباقتدار، عند الضرورة وعندما يتطلب الامر ذلك، في اثناء تعرضه لموضوعات معينة، لها صلة بسير الاحداث، خارج اطار الحقبة المدروسة، الى الاشارة، بايجاز، الى تطورها المستقبلي او اعادتها الى اصولها التاريخية، حيث يتقدم الى مراحل لاحقة، او يعود الى مراحل سابقة، مما يدل على الاحاطة الواسعة التي يمتلكها المؤلف في موضوعه.

٣ ـ من الواضح حرص المؤلف على الاعتماد على مختلف المصادر الاساسية، واختيار اجودها، وتوخي الدقة العلمية في دراسته.

٤ ـ سيلاحظ القارىء مدى الجهد الذي يتطلبه الوقوف على تاريخ الحركة الصهيونية، حيث يتطلب الامر